تاريخ الإرسال: 2013/02/12 - تاريخ القبول للنشر: 2013/05/20 تاريخ النشر: 2013/06/25

حركة التعريب و أثرها في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط

ربوح عبد القادر

جامعة الجلفة

اقترن الفتح الإسلامي بظاهرة حضارية تميزت بالتنوع ، فهناك بلاد أسلمت ولم تتعرب ، وهناك بلاد أسلمت وتعربت ، لأن الإسلام دخلها متأخرا ، وسنحاول في هذه المقالة أن نتكلم عن هذه الظاهرة ، وهي حركة التعريب و تأثيراتها على بلاد المغرب خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى.

أولا- ماهية التعريب:

كلمةٌ تعددت دلالاتها و اختلفت تحديداتها على ممَّر العصور باختلاف الزمان و المكان و الإنسان ، فمدلولها عند اللغويين القدامى تختلف في مدلولها عن المحدثين ، وهو عند المشارقة غيره عند المغاربة ، فلقد تعددت تعاريف اللغويين الأولون لها ، فمن بين هذه التعريفات :

تعريف ابن منظور : هو مصدر الفعل عرَّب أي هذَّبه من اللحن ، وهو نقل اللفظ من الأعجمية إلى العربية ، و بذلك يعرِّف التعريب اللفظي بأنه عملية صرفية قياسية تعتمد لفظة أصلها غير عربي (ابن منظور ، 1990، ص589) ، ويعرِّفها محمد الزبيدي بأنَّه الاسم الأعجمي الذي تنفون به العرب على منهاجها.(الزبيدي ، دت، ص744) ، و أمَّا الفيروز أبادي هو تهذيب المنطق من اللحن.(الفيروز أبادي ، 1979،ص102).

أمَّا التعريب من الناحية الاصطلاحية فهو شحن كلمات دلالية متعددة زادته تشعبا .(الصيادي ،1980، ص 94-93).

أما المفهوم المتداول في أيامنا هذه و أوسع نطاقا هو نقل العلوم و الآداب من اللغات الأعجمية إلى العربية ، و نتيجة لذلك تعرَّبت العلوم و الإدارة و المرافق الحضارية في البلاد العربية (أحمد بن النعمان ، 1981، ص38-36).

و قد تطرَّق ابن خلدون لهذا الموضوع في مقدمته فقال :" ولما كان كتابنا مشتملا على أخبار البربر و بعض العجم ، وكانت تعرض لنا في أسماء عَلم أو بعض كلماتهم ، وحروف ليست لغة كتابنا و لا اصطلاح أوضاعنا و اظطررنا إلى بيانه ولم نكتف برسم

الحرف الذي يليه كما قلنا ، لأنه عندنا غير واف الدلالة عليه ، فاصطلحت في كتابي هذا أن أصنع ذلك الحرف الأعجمي ، بما يدُل على الحرفين الذين يكتنفانه ليتوسط القارئ بالنطق بين مخرجي ذينك الحرفين ، فيتحصل تأديته وإنما اقتنيت ذلك من رسم أهل المصحف حروف الأشمان كالصراط في قراءة خلف ، فإن النطق بصاده فيها بمتوسط بين الصاد و الزاي ، و أسمو في داخلها شكل الزاي ، ودَّل عندهم على التوسط بين الحرفين (عبد الرحمان بن خلدون، 2003، 563).

ثانيا – الدين الإسلامي و اللغة العربية:

إن اللغة العربية سبقت نزول القرآن الكريم ، إلا أن الدين الإسلامي قد دعمها ، بحيث أصبحت لغة عالمية ، وهذا ما يميزها عن بقية لغات العالم ، وبنزول القرآن جعلها محل تدريس و أداة لفهمه ، فحرصَ المسلمون على وضع قواعد النحو و الصرف ، وتعمقوا في دراسات فقه اللغة لتفسيره ، و حمايته من اللحن أثناء القراءة ، كما أنه اشترط التعبد بها ، وهذا ما جعل البربر كغيرهم من الشعوب غير العربية تتكلم في قراءة الأدعية و حفظهم لقصار السور للصلاة (أحمد بن النعمان ، 1998، ص42.45).

فالقرآن جعلها تنتشر في أقطار العالم ، فهي وسيلة مؤثرة و أداة تبليغية ، فبدخول الإسلام يعني تعلم العربية ، وكادت أن تكون مرادفة له في نظر الشعوب غير العربية ، فحين سئل أبي جعفر المنصور عن هويته قال :" إن كانت العربية لسان ، فقد نطقنا بها ، و إن كانت دينا فقد دخلنا فيه ".(نازلي معوض أحمد ، 1976، ص16).

ثالثا – أسباب التعريب ووسائله:

لقد كانت العملية الموازية للفتح الإسلامي، واعتناق البربر الجماعي للدين الجديد ... إقبالهم على تعلم اللغة العربية لفهم الدين و تبليغه بلغته للمجتمعات الأخرى التي أسلمت على أيديهم أصدق مثال على السرعة التي تم بها تعريب البربر تلك الخطبة البليغة التي ارتجلها طارق بن زياد باللغة العربية في الفاتحين عند مداخل الأندلس ، والتي وجهها إلى جنده غالبيتهم من البربر الذين تطوعوا من جيش الفاتحين للجهاد في سبيل نشر الإسلام ، وهذا يدل على أن هؤلاء البربر لم يكن لديهم إي تعصب للغتهم إزاء اللغة العربية ، وإلا فما كان من الممكن لطارق أن يتجرأ على مخاطبتهم باللغة العربية ، ولا قبلوها هم أنفسهم لو كانوا متعصبين للغتهم ، و يفصلون بين الإسلام واللغة العربية ، كما كان الشأن في بلاد فارس مثلا، و لكن أي شيء من هذه النزاعات الشعوبية لم يحدث في بلاد المغرب ، وقد كان الفرد البربري الذي تعلم اللغة العربية حريصا على نشرها بين أهله و عشيرته .

ويؤكد لنا الواقع التاريخي أن الرقعة التي كانت تتقلص منها البربرية لا تعود

إليها أبدا ، وإلى جانب الدين الإسلامي الذي كان السبب الأول و الأساسي في تقبل البربر للغة العربية عن اقتناع ، وتوجد هناك عدة عوامل و أسباب ساعدت على التعجيل بحركة التعريب ، وإنجاحها بسهولة :

1ـ تشابه اللغة العربية و البربرية في النطق وخارج الحروف حتى أن جميع مخارج الحروف العربية موجودة في اللغة البربرية الحالية ، ينضاف إلى ذلك أن ما يقل عن ثلث المفردات في بعض اللهجات البربرية تحمل نفس الدلالات التي تحملها نظيراتها في اللغة العربية ، مع شيء طفيف من التحوير في النطق بها.

2ـ عدم تعصب البربر للغتهم ، و عدم ظهور الحركات الشعوبية فيهم ، إذ لم يكونوا كذلك لقبلوا العربية كلغة دين ، وتمسكوا بلغتهم البربرية في الحياة العامة.

3ـ الهجرات العربية لبلاد المغرب ، والتمازج الذي ساد بين البربر و العرب.

4ـ حماس العرب الشديد لنشر الإسلام ، إضافة إلى ذلك المعاهد الصغيرة لتعليم اللغة العربية التي تُعرف بالكتاتيب ، وقد بدأ ينتشر هذا النوع من المنشآت التعليمية في القرن الأول هجري، وقد كانت غاية البربر أن يتعلموا ، ويفوقوا العرب أنفسهم.

4ـ الأخلاق العالية التي يتسم بها القادة الفاتحون ، واهتمامهم بالتعريب في الأمصارالتي فتحوها ، فعربوا الدواوين الحكومية ، و أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة ، مما حتم على كل من يرغب في الوظيفة أن يتعلم اللغة العربية، وقد بلغت حركة التعريب أوجها في عهد الخلافة الأموية ، حيث ترجم حتى الانجيل إلى اللغة العربية ، ونقلت إلى العربية مختلف فنون و علوم الحضارة الفارسية و اليونانية القديمة.

5ـ اختلاط البربرية بالفينيقية ، وتأثرها بها أثناء ازدهار الحضارة القرطاجية (814ق.م 146ق.م) ، و التي شارك في بنائها البربر و الفينيقيون معا ، و اللغة الفينيقية كما هو معروف من اللغات السامية .

6ـ عدم وجود لغة راقية ذات ثقافة وحضارة في المستوى الذي يمكنها من الوقوف في وجه اللغة العربية ، فلقد كانت اللغة البربرية لغة تخاطب فقط ، ولم يكن لها تراث مكتوب يحفظها إلى جانب منافستها اللغة اللاتينية ، التي كانت لغة الدواوين الرسمية خلال الاحتلال الروماني و البزنطي.

7ـ دور الفرد البربري و حرصه على تعلُّم العربية ، كحرصه الشديد على فهم الإسلام والتمسك بتعاليمه .

8ـ حماس البربر الشديد لنشر الدين ، وصدق اعتناقهم له حبب لديه اللغة العربية ، فنبغ منه أعلام في اللغة العربية وآدابها.

9ـ تكثيف البربر لتعليم اللغة العربية لإرجاع مكانتهم الاجتماعية و المشاركة في العمل السياسي و الإداري و التزواج العربي البربري.

10ـالاعتناق الجماعي للإسلام من طرف البربر في زمن قياسي لا يتجاوز نصف قرن ، حيث ما كاد ينتهي القرن الأول هجري حتى كان سكان المغرب مسلمين تحت راية دولة

إسلامية قوية ، و اختفت اليهودية و المسيحية تماما من البلاد في ظاهرة لم تحدث إلا في بلدان المغرب العربي.

رابعا- الصعوبات التي واجهت حركة التعريب:

لقد واجهت حركة التعريب مجموعة من الصعوبات ، حيث أن حكم شعوب غربية عن العرب تحتاج إلى مهارة كبيرة في فهم طبيعته وماضيه وظروفه الخاصة ، وهي تحتاج ' إلى خبرة طويلة لعلاج مشاكلها ، كما أن ناحية اتساع الإقليم الذي يمتد من برقة إلى طنجة قد صعب من امتداد حركة التعريب ، ينضاف إلى ذلك التبيان السكاني و تركيبته (بتر –برانس)، حيثأن هؤلاء البربر و إن تشابهوا في الجنس ، فقد اختلفوا في كل شيء عدا ذلك ، ثم إنهم لم يتعودوا العيش معا في نظام واحد ، بل عاش كل منهم في ناحية.(حسين مؤنس ، 1992، ص138).

كما أن ظلم الولاة و تعسفهم في جباية الضرائب أدى إلى ازدياد نقمة البربر على الحكم العربي ، حيث يقول إبراهيم بحاز :" وما زال البربر صابرين حتى جاءتهم وفود العراق" ، ومعنى ذلك أن هذه الوفود هي الخوارج التي فرت من حكام العباسيين في المشرق ، ووجدوا البيئة المغربية بيئة خصبة لغرس التيارات المذهبية و السياسية ، ومحاولة تخليص البربر من ظلم هؤلاء الولاة، حيث اضطر هؤلاء العرب إلى الفرار من بلائهم و اللجوء إلى المغرب لإتساع أرضه ، و قد حاول البربر التماس سند لهم يتقون به سوء تصرف بعض رجال السلطة العربية على الأمويين فلم يجدوا لهم أفضل من الأخذ بدعوة الخوارج ،التي ينص دستورها على عدم اشتراط القرشية في الخلافة ،و بقوا ينتظرون الفرصة حتى سنحت لهم على عهد الأمير عبد اله بن الحبحاب الذي كان منشغلا بفتح صقلية ، فاندفع البربر وقتئذ نحو تكوين دولة مستقلة عن الحكومة المركزية، وترقبوا خروج الجيش العربي ، فزحفوا نحو طنجة و عزلوا عنها عاملها عمر بن عبد اللّه المرادي ، وبايعوا صاحبهم ميسرة المدغري كخليفة سنة 122هـ/740م ، فكان أول من دعى باسم الخلافة بالمغرب من البرب ، ثم انغلبوا عليه فقتلوه وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتي ، فقام هذا بشأنهم و زحف بهم نحو المغرب الوسط و الأقصى ، وجاءت عساكر الأمير ابن الحبحاب لرد هجمات البربر ، والتقى الجمعان بوادي شلف فانهزم فيها الجند العربي ، وقتل يومئذ خالد بن حبيب في معركة الأشراف سنة114هـ/732م.(.إبراهيم بحاز ،1994، ص64-61)

و في سنة 123هـ/741م تذمرت الرعية من عسف الأمير كلثوم بن عياض حيث كان يعامل البربر معاملة الرعايا الملزمين بأداء الجزية على الرغم من كونهم مسلمين قائمين بالواجبات ، وهونفس عمل الحجاج بأهل العراق ، ويبدو انه لما اتسع ملك الأمويين و تعقدت مطالب الحياة في دولتهم ، وأخذوا بجميع مظاهر البذخ في القصور فاضطروا إلى الاشتطاط في فرض الخراج و الجزية، وبالغوا في في جباية الضرائب من المسلمين ، ومن المغاربة الذين كانوا يمثلون في نظرهم مصدرا جديدا للضرائب لأنهم كانوا حديثي العهد بالإسلام.(عبد الرحمان محمد الجيلالي ، 2010، ص209)..

خامسا- أدوار حركة التعريب:

اصطحبت الجيوش العربية الإسلامية التي حررت المغرب العربي عددا من الصحابة و التابعين الذين أصبح لهم دور كبيرفي نشر الإسلام وبذر أول بذرة للفكر العربي الإسلامي في أوساط المجتمع المغربي حيث كان نهم القراء و المحدثين و الفقهاء ، وأبرزت كتب الفتوح دورهم الكبير في تعليم أهل تلك البلاد القرآن والحديث و تعاليم الدين الحنيف ، وقد ألف الحافظ أبو القاسم بن بشكوال كتابا عن التابعين الداخلين إلى الأندلس عرفانا منه بفضلهم على أهل المغرب و الأندلس لما قدموه من مجهودات كبيرة في سبيل رفع راية الإسلام هناك وسماه التنبيه و التعيين لمن دخل الندلس من التابعين ، ويذكر أن أول من تعلم القرآن بجبل نفوسه هو عمر بن يمتكن الذي كان يلتقي في طريق غدامس بالجند العربي الداخل إلى إفريقيا فيكتب عنهم لوحة من القرآن الكريم ثم يعود إلى منزله ليحفظ ما فيه كي يرجع إلى الحجة ، فيكتب لوحة أخرى حتى القرآن وتعلم العلم. (إبراهيم محمد حسنين ،2013،ص101).ومن هؤلاء:

أ/ دور الولاة

1-عمرو بن العاص:

فاتح برقة وطرابلس ، و الصحابة الذين دخلوا إلى إفريقية مع جيش المسلمين بقيادة عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح ، و التي سميت حملته بحملة العبادلة في محرم 27هـ، وذلك لوجود عدد من الصحابة باسم عبد اللّه مثل : عبد اللّه بن عمر بن الخطاب ، وعبد اللّه بن الزبير ، وعبد اللّه بن عمرو بن العاص ، وعبد اللّه بن مسعود وغيرهم.

ومن الصحابة الذين دخلوا المغرب أيضا جندب بن جنادة بن سفيان المكني بأبي ذر الغفاري ت 33هـ/653م ، وكان من أهل العلم ، دخل مع ابن لأبي سرح ، وقد روى عن الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، وروى عن جماعة من الصحابة .و المقداد بن عمر تغلب البهراني المكنى بأبي سعيد ت 33هـ/653م ، وقد روى عن الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، ودخل في حملة ابن أبي سرح.

وفضالة بن عبيد الأنصاري ، المكني بأبي محمد ت 53هـ/672م ، وقد روى عن الرسول ، وقيل ان عدد الصحابة الذين دخلوا المغرب يقدر مابين 31-29 صحابيا، والواضح أن هؤلاء الصحابة لم يستقروا مدة طويلة في بلاد المغرب العربي لعدم وجود قاعدة متقدمة لهم فيها إبان بدايات العمليات العسكرية فيها ما عدا مدينة برقة التي كانت تمثل مركز لانطلاق القوات إلى داخل البلاد ، على الرغم من كل ذلك فقد كانوا و غيرهم ممن ذكرتهم المصادر المتخصصة.

2- عقبة بن نافع :

لقد كان لإنشاء مدينة القيروان من طرف فاتح المغرب المجاهد الكبير عقبة بن نافع

من الأهمية في تاريخ انتشار افسلام و الثقافة العربية في بلاد المغرب ، فقد بدأ سياسته في نشر الإسلام و بناء المدينة(عبد الفتاح ،1994 ص 178).، فقد امر ببناء المدينة وبنى المسجد الجامع ، ومن بعده بنى الناس مساجدهم ومساكنهم ... و في ولاية عقبة الثانية دخلت قبائل كثيرة في الإسلام في مناطق واسعة من البلاد ، فلم يكتف بتحرير البلاد عسكريا ، إنما حررها معنويا.(ابن الأثير ،1983 ، ص 230).

وقد أقام للقبائل مساجدا في مدينة ماسة ودرعة ، وخلق في بعض المناطق جماعات من أصحابه منهم شاكر الذي أنشا رباطا باسمه ، و حمل اسمه أبي المهاجر الذي استطاع جذب قبائل أوربة للإسلام ، ونشر الاستقرار في مدينة القيروان وما جاورها(طه ذا النون ، 2004، ص 172).

إلا أنه بعد تأسيس المدينة استقر عدد من الصحابة في القيروان ، وقاموا برواية علوم الكتاب ، و السنة ونشراها بين البربر الذين أسلم منهم عدد كبير ، وكذلك اتخذ عدد من الصحابة السبايا و أمهات الأولاد ، وأصبح لهن و أولادهن دور كبير في نشر الإسلام ، ومن الصحابة : عبد اللّه بن عمر ، وجبلة بن عمر ، و قيس بن يسار وغيرهم .

أما دور التابعين فانه لا يقل عن دور الصحابة ، وقد بدأ واضحا في نشر الثقافة الإسلامية و الحركة العلمية ، بعد تاسيس مدينتي القيروان وتونس ، وفيهم من استقر في هاتين المدينتين ، وقد أوجدوا قاعدة كبيرة للمهتمين بالعلم ، ومن أشهر التابعين:

ـعياض بن عقبة بن نافع الفهري المكنى بأبي يحيى ،روى عن عبد اللّه بن عمر بن العاص ،سكن القيروان وتحول إلى مصر وفيها مات سنة 100هـ/718م

ـبكر بن سوادة الجذامي أبو تمامة ، أقام أكثر من 30سنة في إفريقية محدثا وفقيها ومفتيا ،أخذ عنه الكثير من أهلها توفي بها128هـ/745م.

ـربيعة بن يزيد إبن أبي الأشعث ،روى عن إبن عقبة بن نافع بن عمر الجهني ،سكن المغرب و استشهد مع كلثوم بن عياض القشيري في واقعة بقدورة سنة 132هـ/740م .

وهؤلاء وغيرهم من التابعين هم اللذين كانوا حلقة الوصل بين الصحابة وأهل المغرب وعن طريقهم بدأت العلوم بالانتشار لتصل إلى ما وصلت إليه العصور اللاحقة .

وهنا لابد من التأكيد على دور الولاة والقادة في بلاد المغرب العربي بإرسالهم للعلماء و أصحاب العلوم الشرعية ينشر ما يعلمونه في مدن بلاد المغرب فضلا أنهم من ذوي الخبرة المسبقة بمهنة العليم و التأديب ،فأخذوا على عاتقهم مهمة نشر التعليم في تلك الربوع التي وقعت تحت مسؤولياتهم مثل القائد عقبة بن نافع الذي دار مع وجوه عساكره في ولايته الثانية حول مدينة القيروان و هو يدعو لها ويقول : يارب املأها فقها وعلما ... و اجعلها عزا لدينك وذلا لمن كفربك ". (ابن عذارى ، 1983، ص22).

3ـ حسان بن النعمان الغساني :

وهو والي المغرب الذي أرسل ثلاثة عشر رجلا من علماء التابعين الذين كانوا في مدينة القيروان ، وشاركوا حسانا في حروب التحرير ، وكان لهم دور في التعريب و تعليم الشريعة الإسلامية وهم :

- أبو سعيد كيسان المقبري ، وهو من فضلاء التابعين ، وكان ثقة كثير الحديث ، سكن القيروان ت 100/718م.

- أبو قبيل المعافري ت 128هـ/745م ، وهو من الطبقة الثانية من اهل المغرب ، من اهل الدين والفضل ن صحب حسان ، واشترك معه في معضم حروبه ، وكانت له أخبار مشهورة ن ثم رجع بعد ذلك إلى مصر ن وتوفي بها.

- حنش بن عبد الله السبئي الصنعاني : من اهل الدين و الفضل ، ومن التابعين أ ومن أهل الثقة ، اشترك في حروب تحرير المغرب مع رويفع بن ثابت عندما حرر جزيرة جربة ، و قد بعث أبي المهاجر لتحرير جزيرة شريك (باشو) ، وكان ضمن القوات المرابطة في مدينة القيروان عندما قام عقبة بحملته الكبرى المشهورة ، وتولى في زمن الوالي حسان صدقة الناس و السعي عليهم في بلاد المغرب، وشارك في فتح الندلس مع موسى بن نصير ، وقيل ظانه اختط جامع سرقسطة ، ووضع محرابه في الثغر العلى في الاندلس. سكن القيروان واختط بها دارا ومسجدا نسب إليه، ت100/718م.

- عبد الرحمان بن رافع التنوخي يعد من الطبقة الثانية من اهل المغرب ، يكنى أبا جهل ، وهومن الفضلاء ، ومن التقاة المصريين ، ت 113هـ/731م.

- علي بن رياح بن نصير اللخمي يكنى بأبي عبد الله ، كان فقيها صالحا من تقاة مصر ، ولد سن 15هـ في يوم معركة اليرموك ، فقد عينه في معركة ذات الصواري البحرية مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة34هـ/654م، دخل المغرب محاربا ومجاها في سبيل الله ت 114هـ/732م.

وهناك عدد آخر من الصحابة والتابعيين كان لهم دور واضح في تثبيت ركائز الإسلام في بلاد المغرب ، وقد اكتفينا بذكر هذا العدد منهم.

ويعتبر حسان بن النعمان النقلة النوعية في تاريخ المغرب ، فيرجع له الفضل في توطيد ا لمور في بلاد المغرب ، فعمر مدينة القيروان ،وأولى مساجدها عناية كبيرة ،في بنائها وتزيينها، وفي عهده أصبحت اللغة العربية هي لغة البلاد الرسمية. (حنا الفاخوري ، 1996، ص76).

وبعدها قام بتعريب الدواوين ، ووضع أسس الإدارة على غرار ما كانت عليه في المشرق ، وكان هذا سنة 83هـ/702م ، ثم اتجه إلى تونس و أقام بها دار لصناعة السفن (ابن عذارى ، ص21ـ20).

4ـ موسى بن نصير :

أعقب حسان بن النعمان موسى بن نصير بإرساله بعثة تتكون من سبعة عشر رجلا انتشروا ليعلموا الناس شرائع الإسلام و القرآن الكريم ، ولم نستطع ان نحدد بدقة أسماء هؤلاء سوى حنش بن عبد الله الصنعاني الذي سبق التعريف به ، ومحمد بن اوس النصاري : الذي كان من أهل الدين والفضل معروف بالفقه ، ولي بحر افريقية سنة93هـ، وغزى المغرب و الأندلس مع موسى بن نصير .

وبهذا تكون جهود موسى واضحة في هذا المجال ، فعلى يده أسلم بقية المصامدة ، وأمر العرب ان يعلموا البربر القرآن وان يفقهوهم الدين ، فبنى جامعا في تلمسان ، و أصبحت طنجة مركزا للتعلم و الثقافة الإسلامية ، إذ نلحظ أن السكان كانوا يتفاعلون مع توجه هذا الوالي ، فقد شهد بناء عدة مساجد ، وأهمها مسجد أغمات ، كما يذكر أنه حول بعض الكنائس إلى مساجد.

وكان موسى بن نصير حريصا على أن يظل المسلمون تحت رايته سواء من العرب أو البربر مثلا أعلى أمام الشعب الإسباني ، فلم يترفع أولئك الفاتحون المسلمون على أبناء البلاد ، و إنما امتزجوا معهم وصاهروهم وشاركوهم أحزانهم ومسراتهم ، وحرص الفاتحون على بيان فضائل الدين الإسلامي حتى يتنبه الناس ويدخلوا في رحابه إيمانا بقواعده وأركانه.

ثم إنَّ موسى بن نصير عمد إلى تنظيم الأحوال المالية للبلاد حتى يُجنبها الاضطرابات و يهيئ لها أسباب الاستقرار ، وقد طبق على إسبانيا القواعد التي اتبعها المسلمون الفاتحون في شتى الجهات التي استولوا عليها ، فالأراضي التي فُتحت عنوة قسمت بين الفاتحين بعد أخذ الخمس لبيت المال، أما الجهات التي فُتحت صلحا فتُركت بيد أصحابها مقابل دفع العشر من نتاجها، ولا شك أن هذا التنظيم المالي لم يكن عملا هينا بالنسبة لموسى ، وبخاصة في تلك الجهات من غرب أوربا التي لم تعرف منذ زمن بعيد لونا من ألوان الإدارة العادلة.

واستطاعت الإدارة الإسلامية التي شيدها موسى بن نصير أن تضع الحجر الأساس لبناء الحضارة الإسلامية في إسبانيا، وجعلت من تلك البلاد أعظم مركز للإشعاع الحضاري في أوربا في العصور الوسطى ، ومن ثَمَّ أخذت إسبانيا تخطو سريعا في مضمار الازدهار العلمي ، وتدخل سجل التاريخ باعتبارها الشريان الذي نقل إلى أوربا ثمار الحضارة الإسلامية ومعارفها، وهيَّأ لسكان غرب أوربا السبيل للخروج من جهالة العصور الوسطى إلى نور الإسلام وضوء الحضارة الإسلامية الساطع. (ربوح عبد القادر ، 2012، ص74-73).

ب/ فتح الأندلس :

يُعتبر الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية أمرا طبيعيا،حسب الخطَّة التِّي اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم،وهي تأمين حدودهم ، ونشر دعوتهم ، و ذلك بالمُضي في

جهادهم إلى ما وراء تلك الحدود،لنشر العقيدة الإسلامية، التّي تقتضي أن يستمر المدُ الإسلامي ما دامت فيه القوة على الاستمرار.

لما وصل تيار الفتح إلى شمال إفريقية كان المد الإسلامي المكين يحمل عناصر القوة الذاتية الأصيلة، ومن هنا : ما كان منتظرا من هذه القوة الجديدة التي دفعت بالقائمين بها والعاملين فيها إلى الاستمرار أن تقف عند شواطئ إفريقية الشمالية الغربية.

فهويُعتبر فتحُ الأندلس من أعظم الفتوح التي قام بها المسلمون في القرن الأول للإسلام ، ونظرا للسرعة التي تم بها ، و الأخبار التي وصلتنا عن المراحل المتعاقبة للفتح التي أدت إلى بسط سلطان المسلمين على شبه الجزيرة بأسرها قصير بصفة خاصة ، ولا يمكن الاعتماد عليها ، ذلك أنَّ الأساطير لم تلبث أن غشت الحقيقة التاريخية بقناع يكاد من الصعب النفوذ إليها دائما ، ومن الواضح أن العرب استفادوا في الوقت الراهن من ضعف مملكة القوط الغربيين في إسبانيا فوجهوا إليها اهتماما. وما من شك أنَّ المسلمين قد عرفوا أشياء عن إسبانيا المجاورة لهم ، وعن خصب أراضيها وما فيها من مغريات الغنائم ، وأهم من هذا موقعها الاستراتيجي ، وهذا ما شعر به عمرو بن العاص من ضرورة فتح مصر ومن مغريات ذلك ودوافعه(عبد القادر ربوح ، 2012، ص52، شاكر مصطفى ، 1990، ص16).

وقد اختلف المؤرخون حول الأسباب التّي دفعت المسلمين إلى فتح الأندلس فيرى كل منهم أن السبب الذي ذكره هو الذي حمَّل المسلمين على هذا الفتح(محمد زيتون ، ص307)، فيذكر ابن الحكم أنَّ هناك أسبابا أخلاقية ، حيث أنَّ المسألة لا تخلوا من الأساطير ، ومنها أنَّ الأمير يوليان (عبد الرحمان بن الحكم ، 1990، ص205.البلاذري ، 1983، ص 232.(حسين مؤنس ، 2005،ص 56ـ55) هو الذي أغرى العرب بفتح الأندلس انتقاما من مَلِكها للاعتداء على ابنته (فلورندا) التّي نُعتت في المصادر الاسبانية باسم قبيح أي (الفاجرة) ومن تلك الأقوال أنَّ ابنته كانت تتربى كسائر بنات الأمراء فاستحسنها لذريق اعتدى عليها مُدنسا شرف أبيها. (المقري ، 1988،ص 233)، فأخبرت والدها فأغضبه ذلك ، وصمم على الانتقام من لذريق عن طريق لاستعانة بالمسلمين في إفريقيا، وتمهيد الطريق أمامهم وحثِّهم على دخول إسبانيا ،وقد سهَّل هذا النائب نزول المسلمين لأول مرة على أرض إسبانيا. (كولان ،1980، ص108)، ومنها أسبابا تتعلق بالوضع السياسي ، فقد كان الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (96ـ86هـ/705 714م) قد ولّى موسى بن نصير97هـ/715معلى افريقية سنة 78هـ/697 م ، واستطاع في سنوات معدودة أن يفتح بقية بلاد المغرب ، فوصل حتى نهر ملوية، وبعد هذا النجاح راسل صاحب مصر (عبد العزيز بن مروان) يخبره بالذي فتح الله عليه ، لكن ورغم كل ذلك بقيت سبته محصنة بقيادة يوليان ، ففُتحت طنجة بعد حصار وولّى عليها طارق بن زياد (بسام ،1978م، ص36ـ34).

ومنها أنَّ الحرب كانت مستمرة بين المسلمين و البيزنطيين الذين يُهاجمون الشواطئ

الإفريقية من الجزر الغربية وأنَّ أسطول القوط انظم إلى أسطول الروم في مراقبة سواحل افريقية ، مما حمَّل المسلمين على الاستيلاء على هذه الجزر في الحرب ضد البيزنطيين(ريتون ، 1990،ص308).

هذه بعض الأسباب التِّي أشار إليها المؤرخون عن فتح الأندلس ، ومن الممكن أن يكون ما ذكره المؤرخون أسبابا مباشرة حدثت قريبا زمن الفتح ، فظن البعض أنَّها هي التِّي حمَّلت المسلمين على فتح الأندلس ، ولكن الحقيقة أنَّ امتداد الفتح إلى الأندلس كان أمرا طبيعيا يتماشى مع حقيقة الدعوة الإسلامية و طبيعة القائمين بها (ريتون ،1990، ص 308).

لقد أدى فتح المسلمين للأندلس إلى تغيير الوضع الذي كان سائدا في الأندلس سياسيا واقتصاديا وعسكريا وإداريا ، ودينيا ونتج عن ذلك تغيير اجتماعي كبير ، وشمل جميع أوجه النشاط التِّي كانت سائدة في الأندلس عندما طرقتها أقدام المسلمين.

وخلاصة القول ما قاله بعض المستشرقين عن الفتح الإسلامي للأندلس :

منهم المؤرخ رينهارت دوزي في كتابه (تاريخ المسلمين في الأندلس) ،يقدِّم تفسيرا عميقا للحدث بقوله: " كان الفتح العربي خيرا لإسبانيا ، لقد أحدث ثورة اجتماعية ،فعمدوا على إزالة قسم كبير من الآلام ،التِّي كانت تئن تحتها البلاد منذ عصور (...) كان العرب يحكمون وفقا للطرائق التالية فأنقصت الضرائب تماما ،مقارنة بالضرائب التِّي كانت تُجبى من الحكومات السابقة ،وانتزع العرب من أيدي أغنياء الأرض المقسمة إلى إقطاعات واسعة للفرسان، يزرعها أقنان أو عبيد ساخطون،ووزعوها بالتساوي بين أولئك الذين كانوا يعملون بها ،وراح المالكون الجدد يشتغلون فيها ، يملأهم الحماس و يحصلون منها على أفضل الغلال ، وحُررت التجارة من قيودها ومن الرسوم الباهظة التِّي كانت ترهقهم " (غارودي ، 1995، ص16).

ويقول دوزي أيضا :" إنَّ العرب كانوا يتحلُّون بكثير من التسامح فلم يرهقوا أحدا في شؤون الدين – ولم تكن الحكومة – لتشجع إسلام النصارى ، إذ كانت خزانة الدولة تخسر بإسلامهم كثيرا ، ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ،بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلوا آثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنجة ، وانقضى القرن الثامن كله في سكينة ، وقلما نشبت ثورة ، كذلك لم يبد رجال الدين في العصور الأولى كثيرا من التذمر ، وكانت له أكثر البواعث على ذلك .." (ريتون ، 1980 ،ص329).

والثاني هو الكاتب الاسباني بلاسكو ايبسانير أنَّه كتب شهادة من أجل بلاده على النحو التالي :

" في إسبانيا لم يأت الإحياء من الشمال مع الجماعات البربرية، أنَّه جاء من الجنوب مع العرب الفاتحين (...) ،فتلك كانت حملة تمدينية أكثر منها فتحا (...) دخلت بها إلى بلادنا تلك الثقافة الفتية ،القوية ، المستقرة ، بتطوراتها المذهلة بسرعتها التِّي كانت تُولد

حتى انتصرت ، " وتلك الحضارة التي خلفها حماس البُنى ، وتمثلت أفضل ما في اليهودية والعِلم البزنطي والتي كانت فضلا عن ذلك تحمل معها التقليد الهندي العظيم ، وذخائر فارس ، وكثيرا من الأشياء المقتبسة التي تكتنفها الأسرار ...". (غارودي ، 1995، ص17).

أمّا المستشرق الإسباني جابنجوس فيقول :" لقد سطعت في إسبانيا (الأندلس) أول أشعة لهذه المدينة، التي نشرت ضوئها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية، وفي مدارس قرطبة ، وطليطلة العربية ، جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية ، بعد أن أشرقت على نهايتها ، وحفظت بعناية ، وإلى حكمة العرب وذكائهم ونشاطهم ، يرجع الفضل الكبير في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها. (ريتون ، 1980، ص330).

كما ذهب إلى القول بعض المتحاملين كسيمونيت وهو من أشد الأسبان تحاملا على المسلمين :" أنّه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية ،فإنّ النصارى احتفظوا في ظل الحكم الإسلامي بنوع من الحكومة الخاصة ،واحتفظ الناس بأحوالهم القديمة(على أيام القوط الغربيين) دون تغيير كبير ، وفيما يتعلق بالتشريع ، فإنّهم قد احتفظوا في باب النظم الكهنوتية بقوانين الكنيسة الإسبانية القديمة ،واحتفظوا في الناحية المدنية بالقوانين القوطية ،أو قانون التقاضي، يخضعون لها في كل ما له علاقة بحكومتهم ،وهي حكومة بلدية محلية ، ما لم يكن يتعارض مع القوانين والسياسة الإسلامية . (ريتون ، 1980، ص331).

وقد قضى الإسلام في إسبانيا على الأوضاع السيئة التّي سبق وصفها قبل الفتح ، فقد أحد ثورة اجتماعية هامة ، وقضى على كثير من الأدواء التي كانت تعانيها البلاد منذ قرون، فلم تعد هناك طبقة متحكمة متمثلة في الأسرة الحاكمة و النبلاء، وزال نشاط الكنيسة و نفوذ رجالها ،ووزعت الأراضي توزيعا عادلا ، فكان ذلك حسنة سابغة وعاملا في ازدهار الزراعة إبان الحكم الإسلامي ، ثم كان الفتح عاملا في تحسين أحوال الطبقات المستعبدة ؛ إذ كان الإسلام أكثر معاضدة لتحرير الرقيق من النصرانية كما فهمها أحبار المملكة القوطية ، فانتهت عبودية الأرض أو العبيد (الرقيق) ، حيث تحرر من دخل منهم الإسلام ، وكذلك تحسنت أحوال أرقاء الضياع ؛ إذ غدوا من الزراع وتمتعوا بشيء من الاستقلال وقد شعر أهالي الأندلس مع امتداد الفتح بالمساواة، وخاصة في الضرائب ، وهو أمر لم يألفوه منذ زمن طويل ،هذا إلى جانب احترام العقيدة وإزالة الاضطهاد الديني .

ج/ البعثة العمرية:

خلافة عمر بن عبد العزيز تعتبر مرحلة حاسمة في تاريخ المغرب رغم أنها قصيرة زمنيا ن فمحاولات عمر بن عبد العزيز للإصلاح معروفة ، وهي تتلخص في رغبته في العودة بالإسلام إلى سيرته الولى ، ولذا اعتبره بعض المؤرخين خامس الخلفاء الراشدين (ذا النون ، 2004، ص157).

ويعد اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الذي يعينه الخليفة عمر بن عبد العزيز واليا على المغرب فكان خير إمير ، و أسلم جميع البرب في أيامه ، و أرسل معه الخليفة عمر عشرة من فقهاء التابعين و علمائهم يفقهون الناس في أمور الدين و يبينون لهم الحلال و الحرام، فقال عنه ابن عذارى :ص هو الذي علم أهل افريقية الحلال الحرام" ، ومنهم (أبراهيم محمد حسنين ، 2013، 106):

- أبي عبد الرحمان عبد الله بن يزيد الحلبي ت 100هـ/748م.
- اسماعيل بن عبيد النصاري المعروف بتاجر الله ت107هـ/730م.
- أبي جهم عبد الحمان بن رافع التنوخي ت 113هـ/736م.
- أبي سعيد جعفر بن عاهات بن عمير الرعيني الغساني ت 115هـ/738م.
- حيالن بن أبي جبلة القرشي ت 125هـ/758م.
- بكر مواه الجذامي ت 128هـ/761م.
- اسماعيل بن عبيد الله الأعور ت132هـ765م.
- أبي مسعود سعيد بن مسعود التجيبي.
- موهب بن حي المعافري ت 115هـ/738م.
- طلق بن جعبان الفارسي ت 115هـ/738م.

وقد قام اسماعيل بن عبد الله بتوزيع هؤلاء في أنحاء المغرب ، وبفضل هؤلاء الفقهاء تعلم اهل المغرب الحلال و الحرام و فق أصول الشريعة الإسلامية كما يجب ، ويشيد ابن عذاري بقوله:" كان الخمر بافريقية حلال حتى وصل هؤلاء التابعون فبينوا تحريمها..." ، فنتج عنه انتقال البربر على الإسلام و انتشرت اللغة العربية ، كما قام هؤلاء التابعيين بتأسيس ععد من المساجد : مسجد الرباطي الذي بناه أبي عب الرحمان بن يزيد المعافري ن و جامع الزيتونة بتونس الذي بناه اسماعيل المعرف بتاجر الله ، وكنت هذ المساجد هي النواة الولى و معاهد الدرس و التحصيل ، قبل ان تظهر الجامعات والمدارس ، وكان التلاميذ يسمعون على أساتذتهم الفقه و اللغة والحديث و القراءات ... و غيرها من الدراسات العلمية و الدينية و الأدبية و اللغوية (ذا النون ،2004 ، ص 176).

د/ دور الخوارج:

تعتبر من أهم الهجرات العربية التي حققت نوعا من التعايش ، ونوعا من الاندماج بين العناصر البربرية العربية ، وقد هذه المرحلة مع لجوء المذهب الخارجي للمغرب فرارا من مركز الدولة اولا ، ولأن بلاد المغرب كانت خصبة وقابلة للتكيف ، ولم تتاهل

فيها المفاهيم الإسلامية الحقيقية السنية ن فجماعات الخاورج هاجرت على اختلاف نظرياتهم منها الصفرية و الإباضية .

و الخوارج لم يأتوا على بلاد المغرب بدافع نشر المذهب فحسب ، ولكنهم لجأوا إلى المغرب فرارا من الحرب التي شنتها عليهم الدولة ، فالقوتان غير متكافئتان.

فكان على هؤلاء المتمردين أن يطوقوا الدولة من الخارج ، أي أن ينشروا المذهب في بلاد المسلمين البعيدة عن السلطة المركزية المباشرة للدولة، وبذلك انتقلت جماعات من العرب الخوارج و اللاجئون إليهم فرارا من تتبع السلطة المركزية ، وكان أسلوبهم يعتمد على السرية و على تجميع الأتياع ، ومن شأن ذلك أن يساعد على التعايش و التداخل ، ولذلك أثره على تعريب اللسان.

و الحروب الخطيرة التي عرفتها بلاد المغرب باسم الخوارج شارك فيها بربر و عرب من الجانبين .(غللاب ، 2005، ص176).

ثم إن هذه الحرب كانت سببا في تنقل العشرات من بلاد الشام و مصر لمحاربة الخوارج ن و يذكر المؤرخون مثلا ان الخليفة هشام بن عبد الملك (125-105هـ) قال بعد معركة الأشراف سنة 121هـ التي قتل فيها عدد كبير من أشراف العرب المقيمين في المغرب على الصفرية:" و الله لأغضبن لهم غضبة عربية و لأبعث لهم جيشا أوله عندي و آخره عندهم ، ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمنة يمني أو قيسي."(غلاب، 2005،ص176).

وإذا كنا لا نعتمد لغة هذا الكلام الذي نسبه المؤرخون للخليفة لأنه ظاهر الصنعة ، ولا نعتمدهذه الأرقام لأن المؤرخين دأبوا على التعبير بالرقم الضخم لمجرد التهويل ، فإن ذلك مؤشر على كثرة العدد و نوعية الجيش من العرب ، وعلى مزيد من الهجرة العربية من قبائل معينة (اليمنية والقيسية) في تعريب الإنسان بالمغرب. غلاب، 2005،ص 176).

هـ/ تكوين الدولة الإسلامية :

من أهم المراحل الهامة التي ساهمت في الحركة ، حيث جاء تكوين الدولة الإسلامية بدء بالدولة الرستمية ومؤسسها عبد الرحمان بن رستم (من أصل فارسي من رام هرمز) ، وهومن حملة العلم التي بعثها أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، الذي عرفت الحركة في عهده الطويل نظاما دقيقا ، واستطاع أن يبث العاة إلى المشرق و المغرب ، وهذه الحملة العلمية خرجت من البصرة سنة 135هـ، وتتكون من أربعة أشخاص : عبد الرحمان بن رستم و عاصم السدراتي و اسماعيل بن مدرار الغدامسي و أبو داود القبلي النفزاوي ، وقضاوا مع شيخهم أبوعبيدة خمسة أعوام تلقوا فيها علوم المذهب و اللغة العربية ، في كتمان و سرية تامة ، ، ولما هموا بالرجوع على وطنهم بالمغرب انظم غليهم أبو الخطاب عبد العلى بن السمح المعافري ، وكان قدم إلى البصرة في عدد من

اهل اليمن حيث التقوا ببعثة أهل المغرب ، وتيلقوا العلم في فترة واحدة.(إبراهيم بحاز، 1994 ،ص76)،

وقد تزعم ابن رستم فرقة الإباضي بعد معركة مع جيوش العباسيين بقيادة محمد بن الشعث سنة 140هـ. وقد استطاع عبد الرحمان بن رستم بعد مبايعته بالإمامة من طرف إخوانه في المذهب أن يؤسس دولة إسلامية في المغرب الوسط ، وهي دولة إباضية استظلت بها جميع القبائل الموجدة في المغربين الوسط و الأدنى (بحاز ،1994، ص96).و تعتبر الدولة الرستمية ثمرة جهود علماء المذهب الإباضي في المشرق و المغرب و تتويجا لثورات الإباضية ضد الولاة الأمويين و العباسيين في المغرب العربي(بحاز ، 1994، ص96).

وقد بنى العاصمة تيهرت ، وقضى بذلك على الفوضى الضاربة اطنابها في المغرب ، وأنقذ البلاد من الثورات المتعاقبة ، وعمل على تثبيت اركان دولته ، ووضع دعائمها .

و قد توافد على الدولة جاليات من الأندلس و البصرة و الكوفة ، وكان معظم القائمين على المنصب عرب ، وما من شك أن هذه الجاليات كانت ممن استغوتهم الدعوة الخارجية الإباضية .(غلاب ، 2005، ص 178).

وقد كان للرستميين دور بارز في الحياة الفكرية بالمغرب الوسط ، فلقد حملت هذه الدولة م شعلا عظيما للحضارة و العلم في الشمال الإفريقي فكانت تلي القيروان في ذلك (بحاز ، 1994، ص261).

و الحقيقة أن الرستميين بحكم ثقافتهم الواسعة ، شجعوا الحركة الفكرية و التعريب ، فنشطت تيهرت في هذا الميدان ، وطار صيتها في الآفاق بعد تعميرها حتى دعيت عراق المغرب و بلخ المغرب ، الحاقا بهما في المعارف و العمران والحضارة ، و برزت كمركز ثقافي مشهور في المغرب خلال القرن الثالث هجري / التاسع ميلادي.(بحاز ،1994، ص262).

ولعل من أبرز الحياة الثقافية في الدولة الرستمية ، ما قامت به هذة الدولة من تعميق لجذور الإسلام في نفوس المغاربة ، ومدى اهتمام الناس بالدين دراسة وعبادة وسلوكا ، وقد دخل كثير من المغاربة الإسلام افواجا ، على مذهب الخوارج الإباضة و الصفرية (بحاز ، 1994، ص263).

وتأتي دولة الأغالبة نتيجة اتفاق بين هارون الرشيد غالبة و عاصمتها رقادة ، على إقامة دولة لقاء ضريبة سنوية تدفع للدولة في بغداد و قد أسسها إبراهيم ابن الأغلب سنة 184هـ/800م ،واعتمد على قوة عربية من قبيلته (غلاب،2005، ص179،178) ،وقد وفدت على البلاد مجموعات كبيرة من العرب ،ومن المستعربين ، كما قام المغاربة و العرب بفتح الأندلس ،وقد أسهم الأغالبة في فتح صقلية بالجند العربي البربري ، فكان فتحها أيضا مبعثا للهجرة العربية إلى تونس من أجل نشر الإسلام ،وقد كان للجند العربي في تونس دور كبير في تعريب اللسان ونشر المذهب المالكي

ومصنفاته(الأسدية ، الواضحة، المدونة ،و المستخرجة)

و الدولة الثالثة هي دولة الأدارسة التي نشأة في المغرب الأقصى و في نفس الوقت تقريبا 174هـ/790م ، وقد نشأت بشكل مغاير بعد مذبحة فخ التي قام بها العباسيون في عهد الهادي 169هـ/786م ،فقد فر جماعة من حفدة علي بن أبي طالب منهم من لحقه جنود العباسيين فقتل و أقلهم نجا ،و كان من الناجين إدريس بن عبد اللّه الذي فر من كل مكان يمكن أن تطاله سلطة العباسيين ،حتى وصل إل المغرب الأقصى ،و لم تكن سلطة العباسيين قد إستقرت استقرارا كاملا لهذه البلاد ،فلم يكتب لإدريس الأول أن ينشئ دولة ،فكان ذلك من نصيب ابنه إدريس الثاني الذي اعتمد في تكوين دولته على القبائل البربرية :أوربة ،غمارة، زناتة ، ثم وفدت وفود عربية كبيرة علي إدريس الثاني ،و خاصة بعد أن أنشأ مدينة فاس سنة 811م وقد جاءت هذه الوفود من عرب المشرق وعرب إفريقية ، وعرب الأندلس وقد اتخذ منهم إدريس رجالا للدولة و أعانوه على إقامة الحكم و تسيير الإدارة والقضاء.

وقد بلغت الوحدة أوجها في عهد إدريس الثاني ولعل سندها التقدير الاجتماعي لرئيس الدولة (النسب الشريف).

و/ الهجرة الهلالية :

إذا كان من طبيعة الهلاليين وبنو سليم التمرد و الفوضى و السلب فقد كان من الأوفق سياسيا أن يرمي بهم الفاطميون من مملكتهم إلى مملكة خصومهم بنو زيري الذين مالوا إلى الاستقلال السياسي عن الفاطميين خلال القرن 5هـ/11م .ويطيل المؤرخين في التخريب الوحشي الذي قام به بنو هلال وبنو سليم وبنو عامر وبنو رياح في العواصم الإسلامية الكبرى وإستلائهم على منطقة واسعة من طرابلس حتى شرق الجزائر .

وقد كان لهذه الهجرة دور كبير في تعريب المغرب ،ويهمنا في الجانب التاريخي ،اختلاط البربر والعرب الوافدة عن طريق المصاهرة ،ومع الزمن اندمجوا في المجتمع،فأثرت الأجيال الجديدة في تكوين مجتمع مختلط حتى أن هناك قبائل و عائلات تحمل لقب الهلالي و السليمي حتى الآن. (غلاب،2005، ص183)

ز/ التأثير الأندلسي:

إن عمليات طرد الأندلسيين من الفردوس المفقود قد تمت كما أرادها الأسبان و خطط لها حكام إسبانيا و ذلك من خلال اضطهادهم لأولئك الأندلسيين وملاحقتهم بواسطة محاكم التفتيش ، و كل هذا جعلهم يستنجدون بكل من يستطيع مد يد المساعدة لهم و هذا بعد أن فشلوا في رد الأذى عن أنفسهم ، و تزامنت هذه الأحداث مع الأحداث التي كان يقوم بها خير الدين و أخوه عروج في البحر الأبيض المتوسط من عمليات القرصنة و مهاجمة السفن الإسبانية ، وعمليات إنجاد العديد من مهاجري الأندلس و نقلهم إلى البلاد الإسلامية ،و التي من بينها الجزائر التي نزلت بها جموع المهاجرين الأندلسيين ،

فأكرمت مثواهم ، حيث استقروا في العديد من مناطقها و شرعوا في حركة الجهاد .

لقد استقر المهاجرون الأندلسيون عقب وصولهم إلى البلد المضيف (الجزائر) في مناطق عديدة ، التي كانت بالنسبة لهم بداية لحياة جديدة ـ حرة وكريمة ـ في ربوع هذه البلاد الإسلامية و من أهم مناطق استقرار الهجرات الأندلسية في الجزائر نذكر(بديرينة عبد القادر ، تواتي نور الدين ، 2008، ص28ـ24) :

1ـ تلمسان : لقد تمكن الإخوة عروج و خير الدين من إنجاد العديد من مسلمي الأندلس الفارين من الاضطهاد و التعسف الإسباني ، حيث تمكن خير الدين سنة 1515م من نقلهم إلى شمال إفريقيا و بالتحديد إلى منطقة تلمسان التي كانت معرضة للتهديد من الإسبان الموجودين في وهران،و عندما كان علي العلج حاكما على تلمسان نقل هو الآخر العديد من المهاجرين الأندلسيين على دفعات متوالية إلى تلمسان حيث استقروا بها و قاموا ببناء بلدة المرسى الكبير القريب من وهران و سكنوا بها رفقة بعض سكان المنطقة .

ب / وهران : لقد كانت وهران في طليعة الأقاليم التي استقطبت المهجرات الأندلسية ، حيث تم و في ثلاث رحلات نقل حوالي 11022 مسلما من أقاليم الأندلس الشرقية ما بين أكتوبر و نوفمبر عام 1609م و قد قدر عدد المهاجرين إلى مدينة وهران بحوالي 22 ألفا أندلسي نزل أغلبهم بها يوم 17 أكتوبر .

فضاقت شوارع وهران بهؤلاء المهاجرين الأندلسيين مما توجب على الكثير منه العمل لمغادرتها لعدم توفر إمكانيات إيوائهم داخل المدينة ، فقصد فريق منهم مكون من حوالي 6 آلاف نحو تلمسان و مجموعة أخرى اتجهت نحو مستغانم.

2ـ مستغانم:انتقل الأندلسيون إلى مدينة مستغانم ، و التي كانت قد هجرها معظم سكانها و هذا راجع إلى اضطراب الأمن و تدهور سلطة ملوك تلمسان ، وقام المهاجرون بتعمير هذه المدينة و قد قاموا ببعض الأعمال فيها منها نذكر أنهم قاموا بتحويل مينائها الصغير الذي كان يستقبل السفن التجارية الإيطالية إلى ميناء حربي ، ترابط فيه 12 سفينة استعملها مهاجروا الأندلس في هجماتهم الانتفاضية ضد الإسبان حيث هاجموا مدن بلنسية و غنموا من الكثير .

3ـ الجزائر : لقد كانت مدينة الجزائر هي الأخرى قبلة لمهاجري الأندلس ، حيث استقروا بها و اندمجوا في المجتمع الجزائري في كل المجالات ، وقد انضم العديد من الأندلسيين إلى أسطول أمير البحر خير الدين ، وقد قدر عددهم بحوالي خمسةآلاف أندلسي بين سنتي (1519 – 1541)م ، و تعتبر مدينة الجزائر ذات أهمية بالنسبة للمهاجرين الأندلسيين لأنها قاعدة الحكم العثماني حيث أصبح عدد هؤلاء المهاجرين بها مع مطلع القرن 16م حوالي 25 ألف مهاجر أندلسي و كان لكل فئة من هؤلاء المهاجرين ميزة حسب الأقاليم الأصلية لهم . فمنهم أهالي إقليم الأندلس الذين عرفوا بالأندلسيين و منهم سكان

الثغور من مواطني أرغوان وفلانسيا ، ومنهم أهالي غرناطة حيث استقروا بظاهر المدينة و قد نسب إليهم الحي الذي كانوا يقيمونبه.

4ـ شرشال :بعدما هاجر سكانها الأصليون بسبب الحروب التي كانت دائرة بين ملوك تلمسان و ملوك تونس بقيت خالية لمدة من الزمن إلى أن سقطت غرناطة ، و بدأت عملية تطبيق القرار النهائي لنفي الأندلسيين من إسبانيا ، فهاجر الغرناطيون إلى هذه المدينة و استقروا بها و قاموا ببناء عدد مهم من دورها وجددوا القلعة و اقتسموا الأراضي فيما بينهم و صنعوا عددا هاما من السفن.

و أهم صناعة قاموا بها في هذه المدينة هي صناعة الحرير و هذا لتوفر «دودة الحرير» التي كانت تعيش في أشجار التوت الأبيض و الأسود ، و كونوا مجتمعا جديدا هناك و عاشوا في رخاء و ازدهار.

5ـ البليدة : لقد كان تأسيس هذه المدينة من قبل النازحين الأندلسيين الذين عمروا نواحي متيجة و أقاموا عددا من القرى بالساحل . وقد كان استقرار المهاجرين الأندلسيين بهذه المدينة من خلال قيام خير الدين بمنح بعض الأراضي لهؤلاء المهاجرين و ذلك تحت قيادة أحد الأندلسيين من ذوي الصلاح و التقوى ، حيث قام ببناء مسجد وحمام بالمدينة ، فأصبحت هذه المدينة من المدن المفضلة للأسر الأندلسية ، حيث أصبح معظم سكانها من الأندلسيين إذ لا يقل عددهم عن نصف السكان.

6ـ تنس :يذكر بعض المؤرخين أن مدينة تنس من بين أهم المدن التي قصدها المهاجرون الأندلسيون بعد سقوط غرناطة ، وقد كانوا سببا في ازدهار الحياة هناك خلال القرنين 16م و القرن 17م وقد ذكرت بعض المصادر أيضا أن جماعة من الأندلسيين قاموا ببناء هذه المدينة في منطقة كانوا يترددون إليها في فصل الشتاء ثم سكنوها و استقروا بها ، وأولعوا بصيد السمك حتى أصبحت هذه الحرفة منتشرة في البلاد الجزائرية.

7ـ القليعة: لقد أنشأت هذه المدينة جماعة من المهاجرين الموريسكيين من مقاطعة قشتالة ، حيث قامت هذه الجماعة بفرض نفوذها و المحافظة على تماسكها بفعل اعتزازها بأصولها و ولائها لأحد العلماء الأندلسيين و هو سيدي علي بن مبارك الذي حظي باحترام و تقدير قبائل متيجة ، وقد قصدها جماعات الثغريين من إقليم بلنسية خاصة و قد توسع عمران القليعة بسبب توافد المهاجرين إليها و أصبحت تضم ما لا يقل عن 5 آلاف منزل و كثر عددها في مستهل القرن السابع عشر ميلادي .

8ـ بريشك: هي مدينة صغيرة و لها موقع ممتاز جعلها ذات حظ في استقبال وفود المهاجرين الأندلسيين ، حيث كانت مركزا هاما لتجمع المهاجرين الذين شغلوا مهنة الزراعة و الصناعة و التجارة ، حيث انتعشت هذه الأنشطة بفضلهم ، وساهموا في ازدهار المدينة معماريا ، حيث قاموا ببناء الدور الأنيقة و المباني الفخمة ، و قد أجمع المؤرخون على أن مدينة بريشك من أهم المناطق التي أستو سنة 1531م و هدم سور المدينة و لم يبقى من

مساكنها سوى 700 بيت سنة 1533م .طنها الأندلسيون بالجزائر، و ذلك قبل حدوث الزلزال الذي ضرب المنطقة. .

بالإضافة إلى هذه المدن فإن مهاجري الأندلس قد استقروا بمدن أخرى ومنها نذكر : دلس ، جيجل ، أرزيو ، عنابة ، المدية ، و أنتشر عدد كبير منهم في سهول متيجة ووهران و حول هذه المدن ، و يذكر مؤرخ إسباني "مارمول" أنه وجد بين إقليم قسنطينة و عنابة 20 ألف مهاجر أندلسي من أصل 199500 مهاجر انتشروا في كامل القطر الجزائري ، وهذا خلال زيارته للجزائر في القرن السادس عشر ميلادي.

ويلاحظ أن المهاجرين لم يختاروا المدن فحسب ، بل منهم القرويين الذين اختاروا البوادي ، ولذلك نجد الأسماء العربية في المناطق المختلفة من المغرب سواء كانت أماكن او أعلام. (غلاب، 2005، ص 185).

فلقد تنوع المجتمع الجزائري في تكوينه العرفي ، حيث كانت الجزائر تضم في أواخر القرن السادس عشر ميلادي خمسة و عشرين ألف من العرب المهاجرين من إسبانيا و 12 ألف من المغاربة العرب و البربر، و 15 آلاف تركي و مشرقي و 6 آلاف يهودي و بضعة الآلاف من الأفارقة ، و يعتبر الأندلسيون من أبرز طبقات المجتمع الجزائري نظرا لعددهم الكبير و كذلك دورهم في شتى الجوانب في هذه الفترة.

أما فيما يخص الجانب اللغوي فإن الأندلسيون نشروا في الوسط الحضري بالجزائر لهجة أهل الأندلس التي كانت معروفة بغرناطة ، وهذه اللهجة تتميز بمفرداتها و عباراتها الرقيقة ، فهي عكس لهجة سكان الآخرين الذين يغلب عليهم الطابع البدوي ، على أن انكماش العنصر الأندلسي بعد ذلك جعل هذه اللهجة يغلب عليها مع مرور الوقت نطق أهالي الريف على المدن ، و لم تعد آثارها باقية بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830م.(سعيدوني ، 2003، ص59) . لقد استطاعت الجالية الأندلسية قبيل بداية القرن السادس عشر نشر اللسان الدرج في المناطق الجبلية القريبة من البليدة و شرشال ، حيث أصبحت غالبية السكان تتكلم بجانب اللهجة البربرية المحلية ، اللغة العربية الدارجة في مناطق بيت صالح و بيت مناصر و غيرها .

وقد وصفت مدينة الجزائر و مكوناتها الاجتماعية بأنها مدينة تسكنها طوائف و أعراب و قبائل لهم نفس عادات و حضارة الأندلس و الأتراك ، ومع مرور الأيام و السنين، انقرضت الأصول الأولى و أصبح الكل- أي سكان مدينة الجزائر- يسمون بالجزائريين ، و لعل هذا ما جعل الكثير من الأندلسيين أحفاد لمهاجرين يصعب التعرف على أصلهم الأندلسي ، لأنهم يلقبون بالجزائريين لاسيما رجال العلم و الثقافة منهم، و يؤكد بعض المؤرخين بأن المهاجرين الأندلسيين اندمجوا في المجتمع الجزائري مما يرجح أنهم بمرور الزمن تيقنوا أن عودتهم إلى الأندلس شيء ليس ممكنا ، فاعتبروا أن هذه الأرض هي وطنهم و أن أبناءها إخوان لهم ، فكونوا لحمة متماسكة هي المجتمع الجزائري الموحد.(بديرينة عبد القادر ، تواتي نور الدين ، 2008، ص33).

سادسا ـ نتائج حركة التعريب :

كان لحركة التعريب في بلاد المغرب عدة نتائج مهمة نذكر منها:

1ـ أصبحت اللهجات البربرية الباقية لا نجدها إلى في المناطق الجبلية ، وهنا يحضر قول ابن خلدون :» إن العرب لا يغلبون إلا في البسائط إي الأرض السهلة ، أي أن هذه اللهجات مازالت حية في الأقاليم الجبلية مثل : جبل نفوسة (ليبيا) ، وجزيرة جربة (تونس) ، و بعض واحات تونس و شرق بلاد الجزائر ، لكن هذه اللهجات تستخدم في نطاق الأسرة. (سعد زغلول ،دت ،ص118)

2ـ بالرغم من تعريب مناطق المغرب إلا أننا نجد فئتين من اللهجات :

الفئة الأولى: هي التي ورثت اللغة المشتركة في القرون الهجرية الولى أيام عرب الفتح ومع قيام المدن الساحلية : تونس ، فاس ، تلمسان ، القيروان.

الفئة الثانية: ورثت لهجات بني هلال وبني سليم ، وتوجد في المناطق الريفية ، ومنخفضات برقة ، وجنوب تونس، و الريف الجزائري ، وجنوب المغرب و سواحله الجنوبية ، فالمجموعة الأولى اقدم من الثانية ، وبالتالي يتضح ذلك من كثرة الألفاظ البربرية بها ، وأثر اللغة االبربرية في هذه اللهجة. (محمد فهمي حجازي ، دت، ص379).

3ـ إقامة معاهد صغيرة ملحقة بالمساجد تعرف بالكتاتيب ، فيتعلم من خلالها القرآن الكريم و مباديء اللغة العربية و الفقه ، و قد وضعت هذه المعاهد إما من طرف الدولة أو بجهود أناس صالحين و قفوها لتعليم أبناء المسلمين (كما فعل المستنصر الخليفة الأموي)،

4ـ إن اللغة العربية وسيلة مؤثرة في الدين بوصفها أداة تبليغ للآخرين ، وكلما كانت غنية في بلاغتها ، أجادت التعبير عن التعاليم التي بشر و دعى إليها الدين الإسلامي كلما ساعدت على نشره وترسيخ مبادئه.

5ـ إن الرقعة التي تفتح و تتقلص منها البربرية لا تعود إليها أبدا.

6ـ انتشار اللغة العربية انتشارا واسعا ، بحيث أصبحت لغة الفكر و الحضارة في أجزاء كثيرة من المناطق العربية الإسلامية، وأقبل الموالي على تعلمها و اتقانها.

7ـ أدت حركة التعريب إلى نقل الكثير من المصطلحات غير العربية إلى العربية مثال :

: المسجد.MEZQUITAS

: القنطرة .QUANTARA

: السوق.ZOCO

8- أصبحت المساجد و الجوامع منارات للعلوم النقلية في المغرب الوسيط غذت الحركة العلمية مثل: جامع القيروان ، و الزيتونة والقرويين و قرطبة.

9- تأثر البربر بالؤلفات الفقهية و في التوحيد و التاريخ والسير ، وشيدوا قصورهم على نمط الفن العربي ، و صارت بعض القبائل البربرية تلفق أنساب تصل بها من العرب ، و لم يبق من حضارة الرومان والبزنطيين غير خرابات عظيمة و تذاكر للقوة الرومية.

لقد أظهرت حركة التعريب عددا كبيرا من الصحابة و التابعين والفقهاء العلماء ، الذين ساهموا في فتح الشمال الإفريقي ، والذين لهم الأثر الكبير في نشر السنة و العلوم الإسلامية ، وبينت لنا أن أهالي البلاد انصهروا مع الفاتحين في محاضن الإسلام العظيمة ، وحملوا لواء الإسلام والدفاع عنه ، والتوسع من أجل الدعوة في سبيله.

قائمة المصادر و المراجع:

أولا/ المصادر

01- ابن الأثير (أبو الحسين بن علي الشيباني ت 630هـ/1232م) ، الكامل في التاريخ ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت ، 1983م، ج3.

02- البلاذري (أحمد بن يحيى البغدادي ت 279هـ /905م): فتوح البلدان ، تعليق : رضوان محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1983م.

03- ابن الحكم (أبو القاسم عبد الرحمان بن الحكم ت 287هـ/900م) : فتوح مصر و أخبارها ، ط2 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1999م.

04- ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمان ت808هـ/1405م) : المقدمة ، تحقيق خليل شحادة ، ط1 ، دار الفكر ، بيروت ، 2003م.

05- الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي) : تاج العروس ، دط ، دار الهداية ، دت، ج1.

06- ابن عذارى (أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشي كان حيا سنة 712هـ/1312م): البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق : ليفي بروفنسال، ج.س.كولان ،ط2، دار الثقافة ، بيروت ، 1980، ج1.

07- الفيروز أبادي: القاموس المحيط ، ط3 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، 1979م ، ج1.

08- ابن منظور(أبو الفضل محمد بن مكرم) : لسان العرب ،ط1، دار صادر ، بيروت ،1990م، ج1.

09- المقري (أبو العباس أحمد التلمساني ت 1041هـ/1631م): نفح الطيب من غصن

الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق : حسين مؤنس ، دار صادر ، بيروت ، 1988م ، ج1.

ثانيا / المراجع

01- بحاز إبراهيم : الدولة الرستمية (296-160هـ/909-777م) – دراسة في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية – ن جمعية التراث ، القرارة ، الجزائر ، 1994م.

02- بونار رابح: المغرب العربي ، ط2 ، دار الهدى ، الجزائر ، دت.

03- الجيلالي عبد الرحمان : تاريخ الجزائر العام ، دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر ، 2010م ، ج1.

04- الحجازي محمد : علم اللغة العربية ، دط، دار الغريب للطباعة و النشر ، دت.

05- ذا النون عبد الواحد طه وآخرون : تاريخ المغرب العربي ، ط1، دار المنار الإسلامي ، بيروت ، 2004م.

06- روجي غارودي: الإسلام في الغرب (قرطبة عاصمة الفكر) ، ترجمة : ذوقان قرقوط ، ط1 ، دار دمشق ، 1995م.

07- ريتون محمد : الفتح الإسلامي للأندلس (دراسة وتحليل)، مجلة كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة محمد بن سعود ، الرياض ، 1980، ع4.

08- ريتون محمد : المسلمون في المغرب و الأندلس ، مكتبة الإسكندرية ، مصر ، 1990م.

09- زغلول سعد: تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية الاستقلال ، منشاة المعارف ، مصر ، دت.

10- سعيدوني ناصر الدين : دراسات أندلسية (مظاهر التأثير الايبيري و الوجود الأندلسي) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2003م.

11- شاكر مصطفى : الأندلس في التاريخ ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1990م.

12- الصيادي محمد المنجي: التعريب في الوطن العربي ، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1980م.

13- عبد الفتاح علي : موسوعة المغرب ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1994م.

14- غلاب عبد الكريم : قراءة جديدة في تاريخ المغرب ، دار الغرب الإسلامي ، 2005م ، ج1.

15- الفاخوري حنا: في تاريخ الأدب العربي ، ط1 ن دار الجيل ، بيروت ، 1996م.

16- كولان : الأندلس ، ترجمة : إبراهيم خورشيد ، ط1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1980م.

17- محمد حسنين إبراهيم : تاريخ الإسلام في المغرب العربي ، دار التعليم الجامعي ، الإسكندرية ، 2013م.

18- مؤنس حسين : تاريخ المغرب و حضارته ، 1992م.

19- مؤنس حسين : فجر الأندلس ، ط3 ، دار الرشاد ، القاهرة ، 2005م.

20- نازلي معوض أحمد : التعريب و القومية العربية في المغرب العربي ، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1976م.

21- بن النعمان أحمد: التعريب بين المبدأ و التطبيق ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1981م.

22- بن النعمان أحمد: كيف صارت الجزائر مسلمة ، ط2 ، دار الأمة للطباعة و النشر ، الجزائر ، 1998م.

23- العسلي بسام : موسى بن نصير ، ط2 ، دار النفائس ، بيروت ، 1978م.

ثالثا / الرسائل و الأطروحات

01- بديرينة عبد القادر ، تواتي نور الدين : التأثير الأندلسي في الجزائر على الحياة الاجتماعية والثقافية خلال القرن 16-17م ، (مذكرة مقدمة لنيل شهادة التعليم الأساسي في التاريخ و الجغرافيا)، إشراف : الدكتور الحاج موسى بن عمر ، المدرسة العليا للأساتذة ، بوزريعة ، الجزائر ، 2008-2009م

02- ربوح عبد القادر : دور الأوقاف في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (دراسة من خلال النوازل الفقهية) : (أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط) ، إشراف : الأستاذ الدكتور خالد كبير علال ، المدرسة العليا للأساتذة ، بوزريعة ، الجزائر ، 2012-2013م.